

دلائل الإعجاز

يَضِبَطَ مُوَرَّ الألفاظ وهيئتها ويؤدِّبها كما يؤدي أصناف أصوات الطيور لرأيتَه
- ولا يخطرُ ببالٍ - أنَّ من شأنه أن يؤدِّبَ لفظاً ويقدمَ آخرَ . بل كان حاله
حالَ مَنْ يَرْمِي الحصى ويعدُّ الجوزَ . اللهمَّ - إلا أن تسومه أنت أن يأتي بها
على حُرُوفِ المعجم ليحفظَ نسقَ الكتاب .

ودليلُ آخرُ وهو أنَّهُ لو كان القصدُ بالنظم إلى اللفظ نفسه دونَ أن يكونَ الغرضُ
ترتيبَ المعاني في النظم فسُتُطِقَ بالألفاظ على حذوها لكانَ يَدْبِغِي ألاَّ يختلفَ
حالُ اثنين في العلمِ بحُسنِ النظم أو غيرِ الحُسنِ فيه لأَنهما يُحسَّسانِ بِتوالي
الألفاظِ في النظمِ إحساساً واحداً ولا يعرفُ أحدهما في ذلك شيئاً يجهلهُ الآخرُ .
وأوضحُ من هذا كلامه وهو أنَّ النظمَ الذي يتوَّصفُه البُلغاءُ وتتفاضلُ مراتبُ
البلاغةِ من أجله صنعةٌ يُستعانُ عليها بالفكرة لا محالة . وإذا كانتْ مما يُستعانُ
عليه بالفكرة ويُسْتخرجُ بالرَّويَّةِ فينبغي أن يُنظرَ في الفكرة بماذا تلبَّسَ
أبالمعاني أم بالألفاظ فأَيُّ شيءٍ وجدته الذي تلبَّسَ به فكرُك من بين المعاني
والألفاظِ فهو الذي تحدثُ فيه صنعتُك وتقعُ فيه صياغةُك ونظمُك وتصويرُك فَمُحالٌ أن
تتفكَّرَ في شيءٍ وأنتَ لا تصنعُ فيه شيئاً . وإنما تصنعُ في غيره لو جازَ ذلك لجازَ
أن يفكرَ البندلاءُ في الغزلِ ليجعلَ فكره فيهِ وُصلةً إلى أن يُصنِّعَ من الآجُرِّ
وهو من الإحالة المفُرطة